(20) - المصدر نفسه.
(21) - عن دور الجزائريين في النهضة العربية بالمشرق العربي انظر د. صالح خرفي: الجزائر ودورها في النهضة العربية الحديثة في المشرق، ملحق الثقافة عدد 26 (1975).
(22) - تأسست الكشافة الإسلامية الجزائرية سنة 1937م رغم العراقيل الإستعمارية، وكان بنائها ومسيروها الأوائل السادة: الشهيد محمد بوراس، الصادق الغول، ومحمد فرج وغيرهم للمزيد انظر محمد الصالح رمضان، تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية مجلة الثقافة عدد 70 (1982) ص 59 وما بعدها.
(23) - د. عبد المالك مرتاض: الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق دار الحداثة بيروت ط (1) 1982 ص 101، 102.
(24) - المرجع نفسه.
(25) - هي 20 قصة دبجها يراع الغسيري في البصائر، وتعد من عيون الأدب الجزائري المعاصر قال فيها مرتاض: ... ولو لم يكن من آثار هذه الرحلة سوى هذه العشرين فصلا التي لفظها يراع الغسيري لكفاها أن تكون ذات غناء عظيم بالقياس إلى الأدب العربي المعاصر في الجزائر، أنظر الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، ص 102.
(26) - محمد الغسيري: عدت من الشرق: في طرابلس الغرب، البصائر عدد 250 (1953).
(27) - المصدر نفسه.
(28) - المصدر نفسه.
(29) - محمد الغسيري: عدت من الشرق، في البلاد العربية السعودية، البصائر عدد 267 (1954).
(30) - المصدر نفسه.
(31) - محمد الغسيري: عدت من الشرق، في البلاد العربية السعودية، البصائر عدد 367 (1954).
(32) - المصدر نفسه.
(33) - المصدر نفسه.

ب- التاريخ الوسيط والقديم

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء على عهد المرابطين

د. عيسى بن الذيب

إنّ المتتبع لدراسة العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء يرجعها إلى عهود سابقة لعهد المرابطين، إلا أن ما ميّز فترة المرابطين عن سابقيهم أنّ هؤلاء قد تمكنوا من توحيد (بلاد السودان والمغرب الأقصى والأندلس) المنطقة تحت سلطة واحدة، فمكّنهم ذلك من التحكم في الطرق التجارية والسيطرة على منافذ العبور نحو الصحراء. إذ من المعروف أنّ تجارة السودان الغربي تمر بديار الملثمين، وكانوا يجنون من وراء ذلك أرباح طائلة(1).

كما كان للإستقرار السياسي الذي شهدته البلاد دور في تنشيط الحركة التجارية خاصة بعد أن حرص الأمراء على استتباب الأمن وإشاعة الهدوء(2). هذا فضلا عما تلاه من رد المظالم وقطع المغارم وإزالة المكوس التي كانت تفرضها من قبل الإمارات الزناتية(3). ومن ثمّ أصبح بإمكان التاجر أن يحمل تجارته من إقليم إلى آخر دون خشية ما دام يؤدي عن أرباحه ما فرضه الشرع من زكاة. فكانت تلك السياسة تشجيعا للتجار على المغامرة والمخاطرة في ارتياد الأسواق(4).

ومن هنا اكتسبت التجارة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء أهمية خاصة فتنوعت السلع المتبادلة بين القطرين، وكانت أهم السلع وأشهرها على الإطلاق الذهب لكثرته(5) في أقاليم السودان الغربي.

وتتفق المصادر(6) على أنّ أفضل الذهب في بلاد «غانة» هو ذهب «غيارو»(7)، أما أكثر المناطق ذهبا فهي مدينة «كوغة»(8). وقد قام بوفيل(9) (Bovill) بحصر هذه المناطق فذكر منها «بامبوك» الواقعة في أعالي السنغال، ونهر «فاليم» و«بورى» الواقعتين في تقاطع أعالي نهر النيجر و«لوبي» في فولتا العليا و«أشانتي» الواقعة في الأراضي الداخلية «لساحل الذهب».

وكان الذهب المستورد من «غانة» وجنوبها يستخدم في سك العملة حيث يعود به التجار إلى دور السكة ليضرب دنانير يتصرف بها في التجارة(10).

ومما يوضح أهمية ذهب السودان الدراسة التي قام بها ميسر (Messier)(11) وهي عبارة عن تحليل كميائي لعدد من النقود المرابطية للفترة الممتدة من (442 هـ / 1050م: 597 هـ / 1200 م) للتدليل على صحة ما ذهب إليه المؤرخون الاقتصاديون من أنّ ذهب السودان الغربي لعب دورا بارزا في الحياة الاقتصادية لبلدان حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى.

وقد أثبتت الدراسة الدور الكبير الذي قام به المرابطون في توزيع ذهب السودان الغربي في منطقة حوض البحر المتوسط، حيث كان لتجارهم نشاط كبير، كما حظيت عملتهم بصيت واسع في الأوساط التجارية الدولية. وخاصة بعد استيلائهم على «سجلماسة» سنة (446هـ / 1054م) ثم على «اودغست» في السنة نفسها(12). وهما المحطتان الرئيسيتان لإستقبال ذهب السودان الغربي. فلم يكن من قبيل الصدفة أن أخذ المرابطون بعد سنتين من استلائهم على المدينتين في ضرب دنانيرهم في دور السكة «بسجلماسة»(13).

وإلى جانب الذهب كانت تجارة الرقيق تمثل إحدى السلع التجارية الهامة منذ أقدم العصور، وكانت بلاد السودان مصدرا لرقيق المغرب الأقصى.

ويشير «الإدريسي»(14) إلى كيفية الحصول على الرقيق من السودان وبخاصة من أرض «الزغاوة»(15) فيذكر أنّ أهالي المدن المجاورة يسرقون أبناء هؤلاء القوم الذين ينتقلون في هذه الصحارى، ويسيرون بهم ليلا إلى بلادهم، ثم يخفونهم بعض الوقت، وبعدها يبيعونهم إلى التجار القادمين إليهم من المغرب الأقصى بثمن بخس، الأمر الذي ساعد على رواج هذه التجارة وانتشارها بكثرة إذ يتضح ذلك من قول الإدريسي: «ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى»(16).

ومما شجع على إقبال التجار المغاربة في عهد المرابطين – خاصة – على هذه التجارة أن أرض «صنهاجة» مجاورة لبلاد السودان، وكثرة الحروب التي خاضها المرابطون في المغرب والأندلس. ولعل من الظواهر التي تدل دلالة واضحة على تزايد السود في المغرب الأقصى ظاهرتين أساسيتين هما:

الأولى: تتمثل في كثرتهم المتزايدة في الجيش المرابطي، حيث أنّ «يوسف بن تاشفين» اشترى سنة (464 هـ / 1072م) نحو ألفين من العبيد السود(17). واشترك معه أربعة الآلاف في معركة «الزلاقة»(18).

أما الثانية: فإنّ الإشارات تدل على وجود أعداد كبيرة منهم في المغرب الأقصى إذ فرض «علي بن يوسف» على أهل «فاس» سنة (523 هـ / 1129م) – استعداد للجواز إلى الأندلس – عددا من سودانهم يغزون مع الجيش، وكان نصيب «فاس» ثلاثمائة رأس منهم(19).

ولم تقتصر السلع الواردة من بلاد السودان على الذهب والرقيق بل شملت سلعا أخرى مثل العاج(20) «الشب»(21) والجلود خاصة جلود الحيوانات المفترسة النادرة في المغرب، وكان أهمها على الإطلاق جلد حيوان «اللمط» الذي يتخذ من جلده تروسا يقال لها «الدرق اللمطية» وهي خفيفة لا تنفذ منها السهام(22).

ويبدو أن كمية السلع المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان كانت كثيرة مما دعى «الإدريسي» إلى القول: بأنها كانت «بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال»(23)، كما أنّ عائدها كان وفيرا مما شجع تجار بعض المدن الجنوبية – خاصة أغمات – على إرسال قوافلهم وعبيدهم إلى بلاد السودان فكان التاجر الواحد يرسل ما بين السبعين والمائة جمل كلها محملة بالسلع.

ونتيجة لهذا الثراء الفاحش وصفهم الإدريسي بقوله: «ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا، ولا أوسع منهم أحوالا، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم»(24).

أما السلع الصادرة إلى بلاد السودان فكثيرة إلا أن الملح كان أشهر سلعة يحملها التجار إلى السودان ذلك أن ملوك «غانة» – كما يقول «ابن حوقل» – كانوا في حاجة ماسة إلى هذا الملح(25). وكان التجار المغاربة يحصلون على هذا الملح من مناجمه في «تانتال»(26) و«أوليل»(27) ومنهما يتجهز به إلى بلاد السودان والذي يؤكد أهميته في التجارة أن العمل في تلك الجزيرة كان متصلا ليل نهار، يحفر عنه كسائر المعادن والجواهر(28).

وتسببت ندرة الملح مع حاجة الإنسان الطبيعية لمادته إلى أن صارت قيمته أغلى من الذهب، وكثيرا ما كانت بعض القبائل تستبدله بما زنته ذهبا نظرا لحاجة السودانيين إلى الملح إذ أنه لا قوام لهم إلا به، حتى أن سعر الحمل منه بلغ مائتين إلى ثلاثمائة دينار(29).

ومن هنا فليس من المستعجب بعد ذلك أن احتل الملح مكانة فريدة في التجارة، يتعاملون به في حياتهم التجارية العادية يقول البكري: «وتجارة أهل بلاد كوكو بالملح وهو نقدهم»(30).

ومما لا شك فيه أنه كان لتجارة الملح – في عهد المرابطين – عائدا كبيرا على تجار المغرب الأقصى نتيجة احتكارهم لها، سيما إذا ما علمنا أن مناجم الملح كانت بأراضي «مسوفة»(31) و«جدالة»(32) الصنهاجيتين.

ومن بين المعادن التي تصدرها بلاد المغرب إلى السودان معدن النحاس الذي ترجع أهميته إلى عهد دولة «غانة» نظرا لتوافره بكثرة خصوصا في منطقة «إيجلي»(33) التي يعمل فيها على شكل سبائك ومنها يتجهز به إلى بلاد السودان(34). ويتضح من رواية «ياقوت الحموي» في حديثه عن بلاد السودان، أنّ النحاس كان يستعمل للزينة إذ يقول: «يسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة وجهازهم الملح، وعقد خشب الصنوبر ...، وحرز الزجاج الأزرق وإسورة من نحاس أحمر وحلق، وخواتم نحاس لا غير»(35).

كما شملت صادرات المغرب أيضا بعض المواد الغذائية مثل القمح والسميد(36) على الرغم من أنّ القمح كان يزرع في السودان، إلا أن الكمية التي تنتج منه لم تكن تكفي حاجة السكان. ومن ثم كانت القوافل تحمل منه أحمالا كبيرة إلى بلاد السودان.

ويبدو أنّ الطبقات الشعبية لم تكن تحصل على حاجتها منه لإرتفاع أسعاره لكن القوى الواقعة عند حافة الصحراء الجنوبية، وسكانها في الغالب من الملثمين كانوا يحصلون على مقادير قليلة مقابل خدماتهم التي يقدمونها للتجار أثناء مرورهم بمناطقهم(37).

وإلى جانب القمح استوردت غانة الفواكه المجففة لإنعدامها تماما ببلاد السودان يقول الإدريسي: «ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة»(38).

ولم تقتصر السلع المغربية التي تحملها القوافل إلى بلاد السودان على السلع السابقة بل شملت سلعا أخرى مثل الأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر والزجاج والأصداف والأحجار الكريمة، والأفاوية والعطر وبعض الآلات المصنوعة من الحديد(39).

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

(1) – حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 400، 401.

(2) – ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص 107، 119. وانظر أيضا: حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 266.

(3) – البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص 164، ابن عذارى: البيان المغرب جـ (4)، ص 11. وانظر أيضا: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس جـ 2 ص 37.

(4) – انظر عن ذلك مثلا: الإدريسي: صفة المغرب، ص 62، 75، 178، 197.

(5) – أبو حامد الغرناطي: كتاب تحفة الألباب نشر ضمن .J.A.S عدد TCCXII سنة 1925، ص41، ابن سعيد: كتاب الجغرافية، ص 93، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص426.

(6) – البكري: المغرب ص 167، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 93.

(7) – مدينة في بلاد السودان تبعد عن غانة بإحدى عشر مرحلة، وتحدد بمسيرة ثمانية عشر يوما إلى عشرين يوما، وهي من الأقاليم التابعة لملك غانة. للمزيد انظر: البكري: المغرب ص الحميري: الروض المعطار، ص 427.

(8) – مدينة تبعد عن غانة خمسة عشر يوما، تقع على الضفة الشمالية لنهر النيجر وسكان هذه المدينة مسلمون. انظر: البكري نفس المصدر، ص 179، مجهول: الإستبصار، ص 222.

(9) – The Golden. Trade of the Moors, Oxford University, 1968, p. 121.9.

(10) – الإدريسي: صفة المغرب، ص 8.

(11) – The Almoravids west African gold and the gold Currency of the Mediterranean Basin. in J.E.S.HO. Vol. XVII Part I 1974, pp. 31-32.

(12) – البكري: المغرب، ص 167، 168.

(13) – Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes T2, p. 198.

(14) – صفة المغرب، ص 33.

(15) – منطقة من مناطق بلاد السودان «وزغاوة: عبارة عن كور عديدة وبها الكثير من السكان حرفتهم التجارة أما قوتهم فهي الذرة ولحم الجمال المقددة والسمك، أما لباسهم فكانت من الجلود المدبوغة. انظر: الحميري: الروض المعطار، ص 294.